الارشاد

ما ضى المسلمين وحاضرهم ، الارشاد وما له من التأثير والمكانة فى الحياة الاسلامية ـ أدلة وجوب ـ الارشاد من الكتاب والسنة ـ من يصلح للارشاد ـ أشهر طرق الارشاد ـ الخطابة ـ الدرس ـ التمثيل ـ الاسوة الصالحة ـ الكتابة ـ كيف يتكوّن المرشدون

كلما فَكَّرْتُ فى أمرِ المسلمين وما كان لهم من عز ، وما أصبحوا فيه من ذل ، وما عُرِفَ لهم من الملكِ الواسع ، وعنهم من العدل الشامل ، وما صاروا اليه من كلمةٍ متفرقة ، وممالكَ مُلْتَهَمَةٍ و بلاد مُسْتَعْمَرَةٍ ـ كلما جَدَّ بى التفكيرُ فى ذلك حضرتنى كلمة « الارشاد » وملكت عَلَىَّ نفسى ، واستولت على فكرى ، وكيف لا تكون كذلك و بها قامت هذه الملة ، وانتشرت هذه الشِّرْعة ، وتَكَوَّنَ بها الملك الاسلامي فى مشارق الأرض ومغاربها وشماليها وجنوبيها . « فمحمدٌ عبدُ الله ورسولُه ﷺ » لم تكن له الجيوشُ المؤلَّفة ، ولا الأساطيل القوية ، ولا الغوّاصات الماخِرة ، ولا الطيارات السابحة ولكِنْ بين جنبيه نفسٌ طاهرة ، وروح مُكَمَّلة حركت لسانه بالدعوة الى الحق ، وارشادِ الخلق والاخذِ بهم عن اللمم ، الى السبيل الأمم ففعلت نفسُه بنفوسهم ، وروحُه بأرواحهم ما لا تفعله القوى القاهرة ، فانها إن حركت الأجساد الى حيث يريد المستعبدون الظالمون ، فانها لا تحرك القلوب نحو الغاصبين المستبدين بل ربما أيقظت نائمهم ، وأجَدَّتْ خاملَهم ، وبعثت ساكنَهم الى حيث يناوئُ الغاصب ، ويقهر الغالب ، ويرد الكائد ، ثم يختط لنفسه من طرق السعادة وسُبُل العزة ما يمكِّن له فى الأرض ، ويستعيد به الملك الغابر ، والمجدَ السالف ، وسيطرةَ الأولين ، وعزةَ المؤمنين : قام سيدنا محمد ﷺ لا حول له ولا قوة الا الدعوةُ الى الخير ينطق بها قلبُه قبل أن ينطق لسانُه ، ويظهر أثرُها فى عملِه وخلقِه قبل أن تُنْظَمَ فى كَلِمِه فكان الناس يسمعون مع صوته وَحْىَ قلبه ،

ويرون فى خلقه وفعله أسوةً حسنة ، وقدوة صالحة ، فكل عُضوٍ من أعضائه داعيةٌ ، وكل حاسَّةٍ من حواس سامعيه مشغولةٌ بدعوته ، منصرفةٌ عن غيره ، فكيف لا يُسَيِّرُها حيث يحب ، ويسخرها حيث يَوَدُّ ولا يحب الا الخير ، ولا يود للناس الا ما انطوت عليه نفسه ، وجُبِلت عليه روحه من معالى الامور ، ومكارم الاخلاق ، وكبارِ الآمال . وكذلك صَحْبُ رسول الله ﷺ والتابعون لهم باحسان كانوا داعين بعملهم وقيلهم الى هذا الدين فاستطاعوا أن ينشروه فى قلوب الملايين من البشر قبل أن ينشروا سلطانه فى معظم المعمور من الارض اذ ذاك :

وكما كان بهذه الكلمة قيامُ الامم ، وبناء الدول كان بتركها وإهمالها دَكُّ هذا البناء الشامخ الذى بناه على أساس الحق والعدل آباؤنا السابقون ، وسلفنا الصالحون ، وبعثرةُ هذا الملك العريض الذى توطن (سرة) الكرة الأرضية وخيرَ مافيها من بلاد فهى كلة من فهمها حق فهمها ، وقام بحقوقها ، وحَفِظَ عليها حرمتَها كانت له أكبر عَوْن على آمال يريد تحقيقها ، وأماني يود حصولها . ومن ضَيَّعها ، وحَقَرَ شأنَها ، ونكث عهدها لم تؤاته على آماله بل سَلَبَت منه ما كان جَمَعَهُ وهَدَمَتْ ما كان أقامه

واذا كانت هذه مكانةَ الارشاد كان من الواجب علينا أن نعالج موضوعه ونُلِمَّ بأبحاثه حتى نحرك آلاف العلماء ليقوموا بواجب النصح ويؤدوا العمل الذي كتب الله عليهم أن يؤدوه ، وأخذ عليهم الميثاق أن يبينوه ولا يكتموه . وحتى يعرف الذين تصدوا للارشاد - ولم يحسنوا - الطريقَ السَّوِىَّ الذى يصلون منه الى النفوس فيحركونها نحو ما يحبون ، أو يكونونها كما يبغون - وقد رأيت أن أقسم موضوع الارشاد الى أربعة أقسام :

الأول - فى وجوب الارشاد

الثاني - فى بيان من يصلح للارشاد

الثالث - فى طرق الارشاد

الرابع - كيف يتكون المرشدون

﴿ ١ ـ وجوب الارشاد ﴾

قال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وقال تعالى (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله و يلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا و بينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم) وقال تعالى (واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه [1] وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون) وقال (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) وقال (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار [2] عن قولهم الاثم وأكلهم السحت [3] لبئس ما كانوا يصنعون) وقال تعالى (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء [4] بعض يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة و يطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم) وقال (ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين) وقال تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) وقال (قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) وقال تعالى (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى) وقال تعالى (فلولا نفر [5] من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون)

وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله

(١) طرحوه (٢) العباد والعلماء (٣) الحرام (٤) أنصار (٥) ذهب وسافر

ﷺ يقول « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان »

وروى الشيخان عن تميم الدارى عن النبى ﷺ قال « الدينُ النّصيحةُ » قاله ثلاثا قال : قلنا لمن يا رسول الله قال : لله ولرسولهِ ولأئمةِ المسلمين وعامتهم :

وروى مسلم عن عبدِ الله بن مسعودٍ رضى الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال « ما من نبي بعثه الله فى أمة قبلى الا كان له من أمته حواريون (١) وأصحاب يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره ثم انها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيدهِ فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانهِ فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الايمان حبةُ خَرْدَل »

إلى غير ذلك من الآيات والاحاديث التى ذكرنا كثيرا منها وان كان المتروكُ أكثر لنبين لحضرات العلماء الذين يعيشون لأنفسهم دون أمتهم ودينهم أن واجبَ الارشاد ليس دون الصلوات والزكوات والفرائض المحتمة فى الدين المعروفة بين جمهور المسلمين . فهل رأيت من الحث فى القرآن على الصيام الذى هو ركن من أركان الاسلام مثلَ ما رأيت من الحث على الارشاد ووجوب التذكير والعظة ، والانذار بسوء العاقبة لمن قعد عن القيام بهذا الواجب الذى من أجله بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين لِئلاَّ يكون للناس على الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل والذى من أجله أنزل كتبه بين خلقه يستضيئون بنورها اذا أظلمت عليهم المقاصد والتوت طارق الحق ، وضل الناس المحجة . وهل مدح الله العلماء بما مدحهم به في القرآن الا لأنهم ورثة الانبياء ، يُبَلِّغون الشرائعَ للناس ، ويرشدونهم الى طُرُقِ الفَلاَح والنجاح ، يرشدونهم الى أسباب السعادة والعزة فى هذه الدار (ولله العِزَّةُ (٢) ولرسوله وللمؤمنين ولكنَّ المنافقين لا يعلمون) وفي الدار الآخرة (وان الدارَ الآخرةَ لهى الحيوانُ (٣) لو كانوا يعلمون)

(١) حوارى الرجل خاصته المخلصون له (٢) الغلبة والنصر (٣) أى الحياة الحقة

﴿ ٢ ـ من يصلح للارشاد ﴾

ما خرج من اللسان لا يتجاوزُ الآذان ، وما خرج من القلب وصل الى القلوب ، فَحَرِّكْ دم الاصلاح فيها ، فحرك الأعضاء الى الخير والعمل الصالح ، حركها الى حيث السعادةُ للنفس والعشيرةِ والخلقِ فالنفس الطيبة لا تُصْدِر إلا طيبا ، والنفسُ المكملة تستطيع أن تكمل غيرها ، والنفس الناقصة أولى بها أن تتدارك عيوبها ثم تتطلع بعد ذلك لاصلاح غيرها ولا يمكن أن يعطيَ الشيءَ فاقدُه بل ينفق كل امرئ من وُجْده . اذا أردنا أن نعرف المثل الاعلى للمرشدين فعلينا بالانبياء والمرسلين فمن صفاتهم نتعرف صفات المرشدين ومن طرقهم نتبين طرق المصلحين (لقد كان لكم فى رسول الله أُسْوَةٌ (١) حسنة لمن كان يرجو اللهَ واليومَ الآخر وَذَكَرَ الله كثيرا) المرشد شخص كملت نفسه ، وتهذب خلقه ورشَد عقلُه ، عاملٌ بما عَلِم ، واقف عند ما رسمه له الشارع لا يلتوى عنه يَمْنة أو يَسْرة ملىء قلبُه بخشية الله ، فلا يفعل ما يفعل ، ولا يترك ما يذر خشية من الناس أو من قانون وضعي أتطبَّق عليه نصوصه بل يفعل الخَيْرَ ويترك الشر لأنه يرى سلطان الله محيطا به من كل جانب ، ويرى عينَ الله تُبْصِره كلَّ حين ، تبصره وهو على ملأ من الناس قد غمره نور الشمس ، وتبصره وهو فى زوايا بيته فى الظلام الدامس ، والليل الحالك يُحِبُّ ما يقربه الى ربه ، ويُبْغِض كلَّ ما يبعده عن سبيله يرى أن كتاب الله إمامُهُ فلا يحكم بغير ما يحكم ، ولا يقول غيرَ ما يقول يجعله سَلْوته فى غَدَواته وَرَوْحاته ، وفي أوقات فراغه ، يعكف عليه يتعلم منه الحكمة ، ويتبصر منه طرق الهداية وموارد الرشاد . يأتسى بالرسول ﷺ فى أعماله وأخلاقه وعقائده وآدابه

المرشد شخصٌ بصير بأحوال الناس ، خبير بأمورهم ، ليس خَبًّا ولا مغفلا يُضْحَك عليه وَيُسْخَرُ منه ، عليم بالطريق الذى يسوسهم منه ويأخذ بهم الى حيث عزُّهم ومجدهم وعلوهم وسعدهم ، المرشد شخص جعل الصبرَ عُدَّته ، وتحمُّلَ الأذى

(١) قدوة

في سبيل الحق خلَّته فما يصيبه من الآلام ، وما ينتابه من النائبات يَتَقَبَّلهُ بقلب ثابت ، وجأش رابط بل يستعذب المرّ في سبيل الدعوة ، و يستسهل الصعب في سبيل إعلاء كلمة الله كلَّمَا طُعِنَ بطعنة أو قذف بسَبَّة تأسى بالأنبياء قبله وقال : هذا سيد الرسل رمي بالسحر والجنون والافتراء على الله ومسَّ الشيطان وأوذى في سبيل الله أشد الإيذاء فما كان يقول إلا (اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون) ثم يقول لنفسه : إن مرتبة الارشاد من المراتب العالية التي لا تُنَال الا بالجدّ والصبر على المشاق ، و يتمثل قول الله تعالى (وجعلنا منهم أئمةً يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)

المرشد لا يعرِفُ اليأسُ اليه سبيلا ، وكيف يَتَسَرَّب اليأس الى نفسه وما عليه الا البلاغ المبين ، فان عمِل الناسُ بما دعا فتلك البُغْيَةُ ، وان أعرضوا عنه فانما عليه البلاغ وعلى الله الحساب ، إذا خاطبه ضعيف الايمان وقال له مُثَبِّطاً من عزمه : وما ذا تبلغ كلمتُك من نفوس الناس ، وما ذا عسى أن يكون أثرها فيهم ؟ حكى له قول الله في قوم من بني اسرائيل قالوا مثل مقالته (وَإِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَو مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

المرشد شخص يعرف القرآن حِدَّ المعرفة ، و يعرف أعمال الرسول ﷺ وهديه في صلاته وزكاته وصيامه وحجّه ومعاشرته لأهله وقومه وجهاده في سبيل نشر الدين ،

المرشدُ سياسيٌّ حكيم يأتي الناسَ من جهة ما يعرفون ليَصِلَ بهم الى ما ينكرون من حيث لا يشعرون فيسقيهم الدواء في كوب الشراب العذب مضيفا اليه من المواد ما يغطي مرارته ، يدعوهم إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادلهم بالتي هي أحسن ، فلا يشتد في موضع اللين ، ولا يلين في موضع الشدة ، ولا يمنع الشر بالقوة إذا كانت الكلمة البالغة كافية بعظهم بالقول الرقيق ، والأسلوب العذب الذي لا يعلو على أفهامهم ، و يجرى في مجارى حديثهم .

المرشدُ النَّابِه يستطيع أن يعظ كلَّ صِنْفٍ من الناس وإن كانوا حكاماً ظالمين ، وعتاة جبارين ، وإن كانوا ممن ينفرون منه إذا رأوه ، ويهرولون عنه إذا لاقوه ، فهو بحيلته ودهائه يستطيع أن يَرُدَّ شاردهم ، ويَكْبَحَ جامحهم الى حيث يسمعون عظته البليغة ، وقولته الساحرة ، الفاعلة فى النفوس ما لا تفعله السيوف

ولو أردنا أن نسوق لذلك الامثال لكان من ذلك مؤلف ضخم وحسبنا فى ذلك سيرة الرسول ﷺ ففيها زادُ المرشدين ، وعُدَّةُ الداعين

﴿ ٣ ـ طرق الارشاد ﴾

طرقُ الارشاد كثيرة ولكن نجتزئ بمشهورها عن استقصائها. فنقول : أشهر طرقه الخطابة والدرس والتمثيل والأسوة الصالحة والكتابة .

أما الخطابة فهى أشد هذه الطرق أثرا فى النفوس اذا كانت صادرة من قلوب مخلصة ، طاهرة طيبة ، وكان لصاحبها من طلاقة اللسان ما يُحْسِن التعبير به عما يُكنه الفؤاد . وكان الخطيبُ مراعيا مقتضيات الاحوال فيخطبُ في الحوادث النازلة ، والوقائع الجديدة ، ولا يسلكُ مايسلكه خطباؤنا في هذا العصر ينهون عن جرائم كانت فى سالف الأيام ، ولم يكن لها وجود بين الناس ، بل لا يعرفون اسمها الا من طريق الخطباء ، ويأمرون الناس بما هم به قائمون بدل أن يأمروهم بما هم فيه مقصِّرون ، وينهوهم عما هم له مُجْتَرِحون ، ترى خطباءنا يخطبون بما يعلو على الأذهان ، ولا يفهمه الا العلماء ، ويُكْثِرُون من المجازات والاستعارات والمحسِّنات ، وان كان في ذلك إضاعة المعنى ، والتعمية فى المغزى ، وكان جديراً بهم أن يخاطبوا الناس بما يعقلون ، ويتخيروا من الالفاظ ما يعرفون ، فليس الغرض من الخطابة امتحانَ الخطيب ومعرفةَ بلاغته ، وانما الغرض ايصال المعانى الى القلوب ، فكل طريق يَصِلُ بالخطيب الى هذه الغاية عليه أن يسلكه ، ولو كانت عبارته الى العامية أقرب منها الى العربية الفصحى ، وليت هذه الخطبَ من صُنْعِ الخطباء ولكن أكثرها من صنع القدماء ، على أنى لا أبعد فى الخطيب أن يخطب من حفظه ،

أو من ورق فى يده ولكن أحب له أن يرتجل ، وأن يأخذ من حال الحاضرين ما يجعله موضوع خطابته ، فان رأى منكراً أو بدعة ولو فى أثناء الخطابة تحول بكلامه نحوها كما كان يفعل رسول الله ﷺ

ولا أقصد بالخطابة خطابة الجمع فحسب بل ما يشمل ذلك ويشمل إلقاء المحاضرات فى الجامعاتِ والمنتديات بل الخطابة على الجماهير فى الميادينِ العامة ، والمتنزهاتِ الجامعة ، فان قصرَ الخطابة على ما يكون يومَ الجمع فى المساجد ضئيلُ الأثر ، قليلُ النفع فان من يحضرون المساجد قليلٌ بالنسبة لمن يغيبون . ثم أكثر الحاضرين نفوسهم عارفة للدين ولكن أولئك الذين لا يَعْرِفُونَ بيوتَ الله أولى بالعظة والتذكرة ، وربما كان فيهم نفوسٌ مُتَقبِّلة ، وأرواحٌ مستعدة

وحبذا لو عينت وزارة الاوقاف مرشدين فى الميادين والمتنزهات والمنتديات والمجتمعات وأمرت وزارة الداخلية الجنود بأن يحافظوا على النظام ويسهلوا للواعظين القيام بهذه المِهْنَة ولقد فكرت وزارة الأوقاف بمصر فى إصلاح الخطابة فطلبت الى المربين والمرشدين والواعظين والكاتبين أن يوافوها بخطب تناسب العصر وتقتلع من النفوس جراثيم الامراض الخلقية ، فتقدم اليها أولئك بما جادت به القرائح ، ولكن لم تصنع فيه شيئا على أن هذه الطريقة فى الاصلاح قليلة الفائدة فان الخطيبَ إذا كانت نفسه مصدرَ خطابته وكانت زكيَّةً طيبة اجتمع كلامُه وحالُه وقلبُهُ فى التأثيرِ على السامعين فكان لثلاثتها من التأثيرِ ما ليسَ لكلماتٍ يلوكُها بلسانه ، لا صلةَ بينها و بين قلبه ، بل رُبَّما كان جاهلا معناها ، غير واقف على مغزاها ، فلا جَرَمَ كان ما صاغه أفيدَ فى العظة مما صاغه غيره لعالَم غير عالَمه

وأما الوعظ من طريق الدرس فله فى نفوس الطلبة آثار حَسَنَةٌ خصوصاً إن كانوا صغارا لم تتلوث نفوسهم بعدُ بل كانت على الفطرة التى فُطِروا عليها ، فان المدرِّس الماهر يستطيع أن يصوغ هذه النفوس فى القالب الذى يحب ، واذا عرفنا طول عشرة التلميذ لمعلِّمه أدركنا أن كلماتِ المعلم بما سكنت القلوب ساعة تخرج

لسابق المعرفة ، وطول التجربة ، واذا كان المدرسون أكثرَ الفئات الصالحة للوعظ علمنا أن واجبهم في الدعوة عظيم ، ولا سيما أنهم يصاحِبُون الطالبَ بضعَ سنين ، فلو أن مدرسي المدارس الأولية والابتدائية والثانوية والعالية والمعاهدِ الدينية عنوا ببث الاخلاقِ الفاضلةِ ، والعقائدِ الحقة في نفوسِ المتعلمين لغيروا هذه النفوس في الزمن اليسير إلى ما هو خيرٌ وأصلح ، وكل مدرس يستطيع أن يقوم ببث ذلك ، ولو لم يكن العلم الذي يَدْرُسُه من علومِ الدين أو الاخلاق فان للطلبة أوقاتا يسأمون فيها العلم المحتم ، وتتعطش نفوسهم للمسائل الخارجية ، فلو أن نفسَ المعلم عنيت بالارشاد ما صَدَّها عن غرضِها صادٌّ ، وليس في هذا تقصير في القيام بالواجب ، فان تكوين الأخلاق والآداب أولى من حشو الأدمغة بالمسائل العلمية ، وما ذا تنتفع من علم شخص فسدت أخلاقه وآدابه ، وعاث في الارض فسادا ، فليتق الله حضراتُ المعلمين ، وليعلموا أن الله أودعهم ودائع ، وأوجب عليهم رعايتها ، والقيامَ بحقها فهم رُعاتُها وكلُّ راعٍ مسئول عن رعيته

ولا يفوتني في هذا المقام أن أذكر حضرات العلماء الذين عينتهم وزارة الاوقاف أو الداخلية للوعظ والتذكير بأن يتخيروا الموضوعات التي تناسبُ العامّة وتليقُ بالجمهور كشرح آية أو حديثٍ بعبارة سهلة يكثر فيها ضرب الأمثال بالمعهود لهم ولا يعمدوا الى المسائلِ الفقهية العويصةِ فيشرحوها للعامة فان ذلك مَضَلة لا هداية ، ولقد سمعت مرة مدرسا يفسر للعامة (الم) ويذكر ما فيها من وجوه الاعراب ومختلف الأقوال ، والحمد لله أن لم يكن أمامه الا شخصان وأظن أنهما لم يجلسا اليه لسماع عظته وانما جلسا اليه خشيةَ ألا يجدَ المدرسُ من يسمعُ لقوله . ورأيت آخر يعلم الناس الصلاة فيقول فرائضها كذا وواجباتها ثمان وسبعون وسننها ثلاثون أفلا ترى — أرشدك الله — أن هذا مُنفِّر لا داعية ، ومُعَسِّرٌ على الناس لا مُيَسِّر ، والله يقول (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) (يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ) ويقول النبي ﷺ « يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا » وكان خيرا لهذا المدرس أن يشرح

الصلاة ببيان صفتها بقوله وعمله فان تلك سنة الرسول ﷺ وتلك الخطة المناسبة لأفهام الجمهور

ولقد وزّعت وزارةُ الأوقاف على مدرسيها وخطبائها كتاب (مفتاح الخطابة والوعظ) الذى هو آيات بينات وأحاديث صحيحة فلأن يدرسوا للناس هذا الكتاب أولى من درسهم كتب الفقه والكلام فان أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ

وأما التمثيل فلا بأسَ به لو خَلاَ من الغرامِ والعشق والغِيدِ الحِسان ، ولكن يظهر أن ذلك من لوازمه في عصرنا وأنه لاتنفق سوقه الا بهذه المحسنات ، لهذا كان من رأينا أن اثمه أكثرُ من نفعه وشرّه فوق خيره سيّما اذا عَلِمْنا أنّ أكثر الذين يقومون به من الطبقات المنحطة الذين تلوثت نفوسهم بالفسق والفجور ، وعقولهم بالمخدّرات والخمور ، فاقفال هذه الدور خير من فتحها وحبذا لو فعلت الحكومة ذلك ، وحملُها فى النهى عن المنكر أكبرُ الأحمال ، فان عليها منه بقدرما لها من السلطان وسلطانها أكبر سلطان وان الله ليزَعُ بالسلطان أكثرَ مما يزع بالقرآن

وأما الأسوة الصالحة فهى الداعي الصامت الذى يؤثر بصمته كما يؤثر المتكلم بكلامِهِ بل رُبّما كان الصمتُ أشدّ بلاغة من المنطق يدعوك بعض الناس الى الخير بكلامه وربما كان عملُه على خلاف ما دعا اليه فمثل هذا لا يُرْجى من وراء وعظه خير وانما الخيرُ فى كلامٍ تعززه أعمال ، وفى مثل هذا يقول الله (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟) ويقول (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

يقول علماء الأخلاق : إن البيئةَ والوسطَ الذى يعيش فيه الانسان له تأثير كبير فى تكوينِ أخلاقه ، فان كان صالحاً كان كلُّ ما حواه صالحاً ، وإن كان فاسدا انتشر الفساد منه الى كل ما جاوره ، وما يقولون حقٌّ وذلك لأن أعمال

المجتمعِ الطيب تسرى فى نفوس الافراد من غير أن يشعروا وكذلك الفرد الصالح يؤثر فيمن حوله بالصلاح ، ولذلك آمن كثيرٌ من الناس بالرسول ﷺ بمجرد أن عرفوا حاله وخلقه فكان منهما أكبرُ شاهدٍ على صدقهِ ويقول الله فى حقه (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً) ويقول فى ابراهيم عليه الصلاة والسلام (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ) فاذا كان بعض الناس يُعْيِيه الكلامُ والموعظةُ باللسان فليحسن خلقه وعمله ، فان ذلك ارشاد ودعوة وقيام بواجب الامرِ بالمعروف والنهى عن المنكر

أما الكتابة فانها وإن كانت أندى صوتاً وأبعد مدًى لأنها تسمع القريبين والبعيدين والأجيالَ الحاضرة والقابلة أثرها دون أثر الخطابة فان الحال فيها يساعد اللسان وربما فهم السامعون من الحال فوق ما يفهمون من المقال

والكتابة التى تعتبر من طرق الارشاد هى الكتابة الخطابية التى يقصد فيها الى تحريك أوتارِ القلوب والتأثير في الأعصاب الحسَّاسةِ ومثالها الأعلى القرآن فان طريقته خطابية ولكن مبناها الحق والواقع دون التَّصَوُّرِ والخيال . أما الكتابة العلمية فصلتها بالاخلاق ضعيفةٌ ، وان كانت علاقتُها بالعقولِ وثيقة وتكوين الأخلاق يجب أن ننحى فيه نحوَ المشاعر والعواطف ، دون الافكار والعقول

وقد أصبحت اذاعة الكتابة ميسرة فالمطابع انتشرت فى كل مكان والجرائد والمجلات ذاعت فى أقطار المعمورة فما على الكاتب الا أن يكتب على نحو مارسمنا فاذا بكتابته قد عَبَرَتِ الفيافىَ والبحارَ ودَوَى صوتها فى الآفاق وتلقفها ملايين البشر مُتَلَمِّسين خيرَ ما فيها ، والواعظ الحازم يستطيع أن يُبَلِّغ الناس من طرق كثيرة ربما عرف منها ما جهلناه ـ والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ـ

﴿ ٤ ـ كيف يتكون المرشدون ﴾

فى مصر ثلاثةُ آلافِ عالمٍ أو يزيدون وعشراتُ الألوفِ من طلبةِ العلمِ قلَّ أنْ تجدَ فيهم من يُحْسِنُ الارشادَ ويستطيعُ أن يأخذَ بزمامِ القلوبِ فيَقُودَها الى حيثُ سعادتُها فى حياتِها العاجلةِ والحياة القابلةِ

وما كان ذلك لنقصٍ فى عقولهم أو فسادٍ فى فِطرهم ولكِنْ لم يُسْلَكْ بهم السبيلُ السَّوِىُّ الذى سلكه ربُّ العالمين فى تكوين سَيِّدِ المرسَلين وخير المرشدين محمدِ بنِ عبدِ الله صلواتُ الله وسلامه عليه

وان يكن استعدادنا دون استعداد الرسول ﷺ فلا مانع من أن نُسلِّمَ أو نقاربَ فان الله لم يكلفنا ما لا طاقةَ لنا به « لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا »

لذلك فكرت طويل التفكير فى الطريق الذى نستطيع به تكوين المرشدين الصالحين غير مبالٍ برسومٍ أو تقاليدَ فهداني طولُ البحثِ وصادقُ البلاءِ الى الطريقةِ الآتيةِ : اذا أردنا تربيةَ مرشدٍ فعلينا أن نُحَفِّظَهُ القرآنَ بارشاد قارئٍ تَقِيٍّ حَسَنِ السيرةِ والخُلُقِ وذلك بعد أن نُسلِّمَ بالقراءة والكتابةِ والعلوم الاوليةِ التى تَفْتِقُ الأذهانَ وتُنَمِّى العقول فاذا ما أتمَّ حفظه علَّمناه القواعدَ النحوية مع التطبيق الكثيرمن آى القرآن ثم ألقينا بزمامه الى عاقلٍ أديبٍ دَيِّنٍ يقرأ عليه كثيرا من كتب الأدبِ الشعرية والنثرية ويدربه فى أثناء ذلك على الكتابة والخطابة فاذا ما أجاد الكتابة وانطلق لسانه بالخطابة رجعنا به الى القرآن ـ وقد حفظه ـ وطالبناه بالاكثارمن تلاوته معَ تفهُّمِ معانيه وتدبر آياته دون أن يستعين بكتابِ تفسيرٍ أو معلم ، اللهم الاعقله الناضج وفطرته السليمة وأدبه الذى تعلَّمه ، فان لم يكن له فى كل أولئك الكفاية فوقف فى فهم كلمةٍ غريبةٍ أو معنى آية غامض فلا عليه ان استعان بكتب التفسير أو معلم أمين ولكن بمقدار ما يَعْرِفُ المجهولَ ويستبين المستورَ ثم يعود سيرته الاولى فى الاستقلال بالفهم ، واستنباطِ المعانى والحكم والاحكام التى تضمنتها الآيات

وانما اخترنا تلك الطريق من بين سائر الطرق فى تعلُّم القرآنِ للاسبابِ الآتيةِ

أوّلا ـ هذه هى الطريقة التى تعلم بها الرسولُ ﷺ وصحبُه كتابَ الله المبينَ فكانوا يعتمدون على عقولهم ولغتهم الفطريةِ فى تفهُّم الآيات وكانوا اذا وقفوا فى كلمةٍ أو آيةٍ سأل غافِلُهُمْ ذاكرَهم وعالمُهم مَنْ هو أعلمُ منه « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » ولذلك لما وقف عمرُ بن الخطاب في كلمة الأبِّ فى قوله تعالى « وَفَاكِهَةً وَأَبًّا » سأل عنها فأخبرَ أنها المرعى

ثانيا ـ كتب التفسير مَحْشُوَّةٌ بالخرافاتِ الاسرائيليةِ والاباطيلِ المذهبيةِ ثم هى لم تفسر كتاب الله من حيث هو كتاب هداية يقضى بين الناس فيما فيه يَخْتَلِفُونَ بل عَمَدوا الى النِّكات البلاغيةِ والمسائل النحوية فأطالوا الكلامَ فيها بما حال بين القلوب ومعانى القرآن وهدايته ، ثم تراهم يفسرون اللفظةَ أو الجملةَ بكل محتملاتها وان أَبَى ذلك الأُسْلوبُ أو ناقضه آيةٌ أخرى ، ثم تجدهم يُؤَوِّلُونَ القرآنَ حسب مذاهبهم الفقهية أو نحلهم العقدية ، فترى الكشاف على جلالته فى التفسير وسبقِه الجمَّ الغفير يرجح دائما آراء المعتزلة و ينهج فى التفسير ما يوافقها ، وترى الفخرَ الرازىَّ يعزِّزُ آراءَ الشافعيةِ ويُزَيِّفُ آراءَ الرازى من الحنفيةِ ، وترى النسفى متعصبا لمذهبِه يَقْضِى له فى كل شجار وَإِنْ كانَ غَيْرُهُ واضح لمحجَّة قائم البرهان ليس عليه غُبَار ، واذا نظرت في تفسير النيسابورى وجدته سلكَ مَسلكَ الباطنية فى بيان القرآن و إن هم الا فرقةٌ أرادت القضاء على الدين من حيث لا يشعر المسلمون فيفسرون كتاب الله بما لا يتفقُ واللغةَ ولا ترشد اليه السنة بل بما يناقضه و يأتى على صَرحِ بنائه من القواعدِ

من أجل ذلك لا نرى للمرشد بل لكل متفهِّم للقرآن أن يتعرفه من طريق العكوفِ على كتب التفسيرِ بل عليه أن يعتمد على نفسه بعد أن يُحَصِّل ما رسمنا مضيفا اليه معرفةَ سيرةِ الرسول ﷺ وسننه العمليةِ معتمدًا على الكتب

الصحيحةِ التي كتبت بعين النقدِ والبصيرةِ « ككتاب زاد المعاد فى هدى خير العباد » لابن قيم الجوزيةِ وان يكنْ لابد من كتاب فى التفسير فخيرها في نظرنا « جامع البيان فى تفسير القرآن » للامام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ـ فانه تفسير سلفى فسّر به القرآنُ من حيث هو كتابُ هداية وكتب قبل أن ترفعَ الفرقُ الزائغة رءوسها وقبل أن تتمكن فى النفوس بدعة التعصب للمذاهب التي أضرت بالكتاب والسنة ضررا بليغا على أن كتب التفسير على كثرتها أخذت أحسن ما فيها من تفسير ابن جرير وتفسير الكشاف مضيفةً الى ما أخذته غثًّا من القول وتعصبا للمذاهب وتقعرا فى الاعراب وفي استخراج النكت البلاغية حاشا مسائل وقفت فيها ، فالعناية بالاصل أولى من العناية بهذه الكتب المحرَّفة فى ألفاظها ومعانيها والتي كتبت بلسان التعصبِ والصناعةِ لا بلسان الحقِّ والهداية

ثالثا ـ ما فهمه الانسان من تلقاءِ نفسه وكان نتيجةَ بحثه وكدّه يتمكنُ من قلبه ، وقلما تذهب به يدالنسيان ، ثم ان الانسان بذلك يتعود الاستقلال فى الفهم ، والاعتماد على النفس والترفع عن حضيض التقليد ، وربما عنَّ له من المعانى ما لم يعنَّ لسابقين وربما كان فى عصره حوادث كشفت عن معاني كثيرٍ من الآيات فاذا كان مستقلا فى فهمه مسترشدا بأحوال عصره فى تفهم القرآن سهل عليه ادراك هذه المعانى الجديدة على أنى لا أعتبرُ مفسرا من يحفظ أقوال غيره دون أن تكون له ملكة فهم فى القرآن فان هذا ان حوَّل عما يحفظه قليلا لم يستطع متابعة السير معك لأنه ما تعوّد الاستقلال فى البحث

ذلك مايتعلق بأصل الدين فى تكوين المرشدين ولكنْ لن يصلوا الى حبات القلوبِ بوعظهم الا اذا عرفوا الدنيا وسيرَ أهلها وأخلاقهم ، لذلك كان من الواجب أن يتعرفوا أحوالَ المسلمين العامة وصلتَهم بغيرهم من الأمم الأخرى ، وأن يختلطوا بالناس ليعرفوا عِلَلَهم وأمراضهم حتى إذا ما وصفوا لهم الدواء أتى على الداء فبرأ باذن

الله وكأيٍّ من واعظ لعدم تبصره يشوّن الناس أضلّ أكثر مما هدى وهدمَ فوقَ ما بنى ونفّرَ بدل أن قرب ، فأمثالُ أولئك دعاةُ الغواية لا رسلُ الهدايةِ أولئك يفسدون فى الارضِ ولا يصلحون

وكما تلزم الواعظَ الخبرةُ بأحوال الناس ينبغي أن يقفَ على طرفٍ من علوم الحياة التى تبصّره بالكون ونظامه والسنن التى قام عليها بناؤه حتى يكون له من ذلك مُعينٌ على معرفة أسرار الله فى صنعه وحكمته فى تدبير خلقه وبذلك يستطيع فهم آي القرآن الكونية وتقريبها من أفهام العامة فيبصرُ ويبصرون و بآيات الله يوقنون وعلى الله قصد السبيل

امام الوعاظ

امامُنا فى الدعوةِ والارشادِ خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وقد خطب الجمهور وراسل الملوك وكان إمامُه كتابَ الله يعمل بارشاده يُنفّذُ أمرَهُ ويتجنب نَهيَهُ وكان يُكثِرُ من تلاوته نهاره وليله حتى صفت نفسه وانشرح صدرهُ فكانت كلِمُهُ على الناس بردا وسلاما و يقينا وايمانا ، لذلك رأينا أن نُحَلِّيَ جيد كتابنا بخطب الرسول ﷺ ومكاتباته إلى الملوك والامراء لتكون نبراساً لنا فى وعظنا وارشادنا ودعوتنا ملوك الوقت وحكامَه إلى دين الله ، ونقدم لك بين يدى ذلك .فصلا فى هديه ﷺ فى قراءة القرآن وترتيله ، لأنه مَوْئِلُ الواعظِ ومعينه وَخَليلهُ وَنَصِيرُهُ .وفصلا آخر فى هديه ﷺ فى خطبه لِتَتَبَيَّنَ طريقه وتسلكَ سبيله « قُلْ هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتّبعَنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » « إنّما امِرْتُ أنْ أعبُدَ ربَّ هذهِ البلدة الذى حرمها وله كلُّ شئ وأمرت أن أكونَ من المسلمين وأن أتلوَ القرآنَ فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المُنذِرين . وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافلٍ عما تعملون »

هَدْيُه ﷺ فى قراءةِ القرآنِ واستماعِه

كان له ﷺ حِزْبٌ يقرؤه ولا يخل به وكانت قراءته ترتيلا لا هَذًّا ولا عجلة بل قراءةً مفسرةً حرفا حرفا ، وكان يُقَطِّعُ قراءته آية آية ، وكان يَمُدُّ عند حروف المد فيمد الرحمن ويمد الرحيم وكان يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم فى أول قراءته فيقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وربما كان يقول : أللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم من هَمْزِه وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ (١) ، وكان يحب أن يسمع القرآن من غيره وأمر عبد الله بن مسعود فقرأ عليه وهو يسمع ، وخشع ﷺ لسماع القرآن منه حتى ذَرَفَتْ عيناه (٢) وكان يقرأ القرآن قائما وقاعدا ومضطجعا ومتوضئا ومحدثا ولم يكن يمنعه من قراءته الا الجنابة وكان يَتَغَنَّى به ويُرَجِّع صوته به أحيانا وقد استمع ﷺ ليلة لقراءة أبى موسى الاشعرى فلما أخبره بذلك قال : لو كنت أعلم أنَّكَ تَسْمَعُه لَحَبَّرْتُه لك تحبيرا أي حسنته وزينته بصوتى تزيينا

وأعلم أن التطريب والتغنى على وجهين « أحدهما » ماقتضته الطبيعة وسمحت به من غير تكلف ولا تمرين وتعليم بل إذا خُلِّىَ وطبعه واسترسلت طبيعته جاءت بذلك التطريب والتلحين فذلك جائز ، وان أعان طبيعته فضلُ تزيين وتحسين كما قال أبو موسى للنبى ﷺ : لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا ، والحزين ومن هاجه الطربُ والحبُّ والشوق لابد له من نفسه دفع التحزين والتطريب فى القراءة ولكن النفوس تقبله وتستحليه لموافقته الطبع وعدم التكلف والتصنع فهو مطبوع لا مُتَطَبَّع وكَلِف لا مُتَكَلِّف فهذا هو الذى كان السلف يفعلونه ويستمعونه وهو التغنى الممدوح المحمود وهو الذى يتأثر به السامع والتالى « الوجه الثانى » ما كان من ذلك صناعةً من الصنائع وليس فى الطبع السماحةُ به بل لا يحصل إلا بتكلف وتصنع وتمرّن كما يتعلم أصوات الغناء بأنواع الالحان الساذجة والمركبة

(١) الهمز النخس والغمز والنفث نفخ فيه قليل الريق (٢) ذرف الدمع سال

على إيقاعاتٍ مخصوصة وأوزان مخترعة لا تحصل إلا بالتعلم والتكلف ، فهذه هي التى كرهها السلف وعابوها وذموها ومنعوا القراءة بها وأنكروا على قارئيها [١]

هديه ﷺ فى خطبه

خطب ﷺ على الارض وعلى المِنْبَرِ وعلى البعير وعلى الناقة وكان منبره ثلاث درجات وكان قبل اتخاذه يخطب الى جِذْعٍ [٢] يستند اليه ولم يكن المِنْبَرُ فى وسط المسجد وانما كان بجانبه الغربى قريبا من الحائط وكان بينه و بينها قَدْر مَمَرِّ الشخص

وكان إذا خطب احمرت عينُه وعلا صوتُه واشتد غضبُه حتى كأنه منذرُ جيش يقول : صَبَّحَكم ومَسَّاكم ويقول : بعثت أنا والساعةَ كهاتين و يفرق بين أصبعيه السبابة والوسطى و يقول : أما بعد فان خير الحديث كتابُ الله وخيرَ الهَدْيِ هَدْيُ محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار . ثم يقول : أنا أولى بكل مؤمنٍ من نَفْسِه من ترك مالا فلأهله ومن ترك دَيْناً أو ضَياعاً [٣] فالىَّ وعلىَّ وكان لايخطب خطبة الاافتتحها بحمد الله وأما قول كثير من الفقهاء إنه يفتتح خطبة الاستسقاء بالاستغفار وخطبة العيدين بالتكبير فليس معهم فيه سنة عن النبى ﷺ ألبتة وسنته تقتضى خلافه وهو افتتاح جميع الخطب بالحمد لله

وكان فى خطبه يتشهد بعد الحمد والثناء ويذكر فيها نفسه باسمه العلم وثبت عنه أنه قال : كل خطبة ليس فيها تشهد فهى كاليد الجذماء [٤] وكان يقول بعد الثناء والتشهد : أما بعد .

وكان يختم خطبته بالاستغفار وكثيرا ما كان يخطب بالقرآن ، وفى صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة قالت : ما أخذت قَ والقرآن المجيد الا عن لسان رسول

(١) لخصنا هذا الفصل والذى يليه من زاد المعاد من مواضع مختلفة (٢) ساق النخلة
(٣) الضياع ـ بالفتح ـ العيال وأصله مصدر ضاع يضيع ضياعا فسمى العيال بالمصدر وان كسرت الضاد كان جمع ضائع (٤) المقطوعة

الله ﷺ يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس [١] ، وكان يكثر من ذكر الله ويقصد الكلمات الجوامع وكان يقول فى خطبه : أيها الناس إنكم لن تُطيقوا أولن تفعلوا كل ما أمرتم به ولكن سددوا وأبشروا ، وكان يعلم أصحابه فى خطبته قواعد الاسلام وشرائعه ويأمرهم وينهاهم فى خطبته إذا عَرَضَ له أمر أو نهى. دخل سُلَيْكٌ الغَطَفانِيُّ وهو يخطب فجلس فقال له : قم ياسليك فاركع ركعتين وتَجَوَّزْ فيهما [٢] ثم قال وهو على المنبر : إذا جاء أحدُكُمْ يومَ الجُمُعَةِ والامام يخطب فليركعْ ركعتين ويتجوَّز فيهما ، ونهى المتخطِّى رقاب الناس عن ذلك وأمره بالجلوس وكان يقطع خطبته للحاجة تعرض. والسؤال لأحد من أصحابه فيجيبه ثم يعود إلى خطبته فيتمها ، وكان ربما نزل عن المنبر الحاجة ثم يعود فيتمها. جاء الحسن والحسين يَعْثُران فى قميصين أحمرين فقطع كلامه فنزل فحملهما ثم عاد إلى مِنْبَره ثم قال : صدق الله العظيم : إنما أموالكم وأولادكم فتنة . رأيت هذين يعثران فى قميصيهما فلم أصبر حتى قطعت كلامي وحملتهما وكان يدعو الرجل فى خطبته : تعال اجلس يا فلان صل يافلان ، وكان يأمرُ الناسَ بالدنُوِّ منه والانصات ويخبرُهم أن الرجل إذا قال لصاحبه : أَنْصِتْ فقد لغا [٣] ويقول : من لغا فلا جمعة له . وكان يقول : من تكلم يوم الجمعة والامام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا [٤] والذى يقول له : أنصت ليست له جمعة [٥] ـ رواه الامام أحمد ـ وقال أُبَيُّ بن كعب قرأ رسول الله ﷺ يوم الجمعة تبارك وهو قائم فذكَّرنا بآيات الله وأبو الدرداء أو أبو ذر يُغْمِزنى فقال : متى أنزلت هذه السورة فأنى لم أسمعها إلى الآن فأشار اليه أن اسْكُتْ ، فلما انصرفوا قال : سألتك متى أنزلت هذه السورة فلم تخبرني فقال : انه ليس لك من صلاتك اليوم إلا ما لغرت فذهب إلى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك وأخبره بالذي قال له أُبَيٌّ فقال رسول الله ﷺ : صدق أُبَيٌّ [٦] وقال ﷺ : يحضر الجمعة ثلاثة نفر. رجلٌ

(١) سيأتى تفسيرها بعد (٢) خفف فيها (٣) عدل عن الصواب (٤) كتبا
(٥) رواه الامام أحمد (٦) رواه ابن ماجه وسعيد بن منصور وأصله فى مسند أحمد

حضرها يلغو وهو حظه منها ، ورجلٌ حضر بدعاء فهو رجلٌ دعا الله عز وجل إن شاء أعطاه وان شاء منعه ، ورجل حضرها بانصاتٍ وسكوتٍ ولم يَتَخَطَّ رقبة مسلم ولم يؤذ أحدا فهى كفارة له إلى يوم الجمعة التى تليها وزيادة ثلاثة أيام. وذلك أن الله عز وجل يقول - من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها [1] - وكان ﷺ يأمرُ بمقتضى الحال فى خطبتهِ فاذا رأى منهم ذا فاقة وحاجة أمرهم بالصدقة وحضهم عليها ، وكان يشير باصبعه السبابة فى خطبته عند ذكر الله تعالى ودعائه ، وكان يستسقى بهم إذا قحط المطر [2] فى خطبته وكان يُمْهِلُ يوم الجمعة حتى يجتمعَ الناس فاذا اجتمعوا خرج اليهم وحده من غير چاويش يصيح بين يديه ، فاذا دخل المسجد سَلَّم عليهم فاذا صعد المنبر استقبل الناس بوجهه وسلم عليهم ولم يدعُ مستقبل القبلة ثم يجلس ويأخذ بلال فى الأذان فاذا فرغ منه قام النبى ﷺ فخطب من غير فصل بين الأذان والخطبة لابإيراد خبر ولا غيره ولم يرفع أحد صوته بشئ ألبتة لا مؤذن ولا غيره ، ولم يكن يأخذ بيده سيفا أوخلافه وانما كان يعتمد على عصا أو قوس قبل أن يتخذ المنبر ، ولم يحفظ عنه أنه اعتمد على سيف ألبتة ، ومايظنه بعض الجهال أنه كان يعتمد على السيف دائما وأن ذلك إشارة إلى أن الدين قد قام بالسيف فمن فَرط جَهْلِهِ فانه لا يحفظ عنه بعد اتخاذ المنبر أنه كان يرقاه بسيف أو قوس أو غيرهما والدين إنما قام بالوحي وأما السيف فلحق أهل الضلال والشرك ومدينة النبى ﷺ التى كان يخطب فيها إنما فتحت بالقرآن ولم تفتح بالسيف وكان ﷺ يخطب فى الجمعة قائما ووجهه قِبَلَ الناس وكان بعد خطبته الأولى يجلس جلسة خفيفة ثم يقوم فيخطب الثانية فاذا فرغ منها أخذ بلالٌ فى الاقامة ، وكان يقصر خطبته أحيانا ويطيلها أحيانا بحسب حاجة الناس ، وكانت خطبته العارضة أطول من خطبته الراتبة وكان يخطب للنساء على حدة فى العيدين ويحرضهن على الصدقة ، وكان يبدأ فيهما بالصلاة قبل الخطبة فيصلى أولا ثم يقوم مقابل الناس وهم جلوس على صفوفهم

(١) رواه أحمد وأبو داود (٢) احتبس

فيعظهم ويوصيهم ويأمرهم وينهاهم وان كان يريد أن يقطع بعثا قطعه أو يأمر بشئ أمر به ولم يكن هناك منبر يرقى عليه ولم يكن يخرج منبر المدينة وانما كان يخطبهم قائما على الأرض وكان ﷺ إذا رقى المنبر أخذ بلال فى أذان الجمعة ولم يكن إلا أذان واحد فاذا أكمله أخذ النبى ﷺ فى الخطبة ولم يقم أحد يركع ركعتين ألبتة ومن ظن أنهم كانوا إذا فرغ بلال من الأذان قاموا جميعا فركعوا ركعتين فهو أجهل الناس بالسنة وهذا الذى ذكرناه من أنه لا سنة قبلها هو مذهب مالك وأحمد فى المشهور عنه وأحد الوجهين لأصحاب الشافعي أما السنة بعدها فثابتة فقد كان ﷺ إذا صلى الجمعة دخل إلى منزله فصلى ركعتين

وكانت خطبه ﷺ بياناً لأصول الاسلام من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وذكر الجنة والنار وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته وما أعد لأعدائه وأهل معصيته، فيملأ القلوب من خطبته إيمانا وتوحيدا ومعرفة بالله وأيامه لا كخطب غيره التى إنما تفيد أمورا مشتركة بين الخلائق وهى النوح على الحياة والتخويف بالموت فان هذا أمر لا يحصل فى القلب إيمانا بالله ولا توحيدا له ولا معرفة خاصة ولا تذكيرا بأيامه ولا بعثا للنفوس على محبته والشوق إلى لقائه فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة غير أنهم يموتون وتقسم أموالهم ويُبلِي التراب أجسامهم، فياليت شعرى أى إيمان حصل بهذا وأى توحيد ومعرفة وعلم نافع استفاده السامعون، ولكن طال العهد وخفى نور النبوة وصارت الشرائع والأوامر رسوما تقام من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها فأعطوها صورها وزينوها بما زينوها به فجعلوا الرسوم والأوضاع سننا لا ينبغى الاخلال بها وأخلوا بالمقاصد التي لا ينبغي الاخلال بها فرصّعوا الخطب بالتسجيع والفقر وعلم البديع فنقص بل عدم حظ القلوب منها وفات المقصود بها

ذلك كلام ابن القيم يصف به الخطابة في القرن الثامن وكأنما يصف خطباءنا اليوم فان أكثرهم كما قال غير أنهم ينقلون من دواوين وضعت لعصر غير عصرنا وكان لأهله حال تخالف حالنا وقد أكثروا فيها من الخرافات والأحاديث الضعيفة

بل الموضوعة كحمل الارض على ثور وإعتاق الله سبعمائة ألف عتيق فى كل ليلة من ليالى رمضان و يعتق فى الأخيرة بقدر ما أعتق فى الليالى السابقة أى يعتق الله ٣٦ مليونا من النار كل سنة فاذا أخذنا بهذا الحديث لا يبقى فى النار أحد لا مشرك ولا عاص بل يبقى فيها ـ مئات الملايين . فما أشقى الناس بأمثال هؤلاء المحرفين ولكن بدت والحمد لله روح الاصلاح وسيقضى الصالح على الطالح « فأما الزبد فيذهب جُفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الارض »

خطب الرسول ﷺ

واذ قد فرغنا من بيان طريقته فى خطبه نذكر لك ما وقفنا عليه من ذلك لتُغَذِّىَ نفسك بكلام النبوة وتَشْحَذَ قريحتك برائع معانيها وحكمة ملقيها

روى أبو داود فى سننه عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : الحمدُ للهِ نستعينهُ ونستغفرهُ ونعوذُ باللهِ من شرور أنفسنا ، من يهد الله فلا مُضِلَّ له ومن يُضْلِلْ فلا هاديَ له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالحق بشيرا ونذيرا بين يدى الساعة من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يَعْصِهما فانه لا يَضُرُّ إلا نفسه ولا يَضُرُّ الله شيئا

وقال ابن شهاب : بلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا خطب. كلُّ ماهو آت قريب لا بُعْدَ لما هو آت ولا يعْجَل الله لِعَجَلَةِ أحد ولا يَخِفُّ لأمرِ الناس ما شاء الله لا ما شاء الناس ، يريد الله شيئا و يريد الناسُ شيئا ما شاء الله كان ، ولو كره الناس ، ولا مُبْعِدَ لما قَرَّبَ الله ولا مُقَرِّبَ لما بَعَّدَ الله ولا يكون شئ إلا بإذن الله

خطبته ﷺ لما قَدِمَ المدينة

قال ابن إسحق : كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ فيما بلغنى عن أبى سَلَمَةَ بن عبد الرحمن ونعوذ بالله أن نقول على رسول ﷺ مالم يَقُلْ أنه قام فيهم